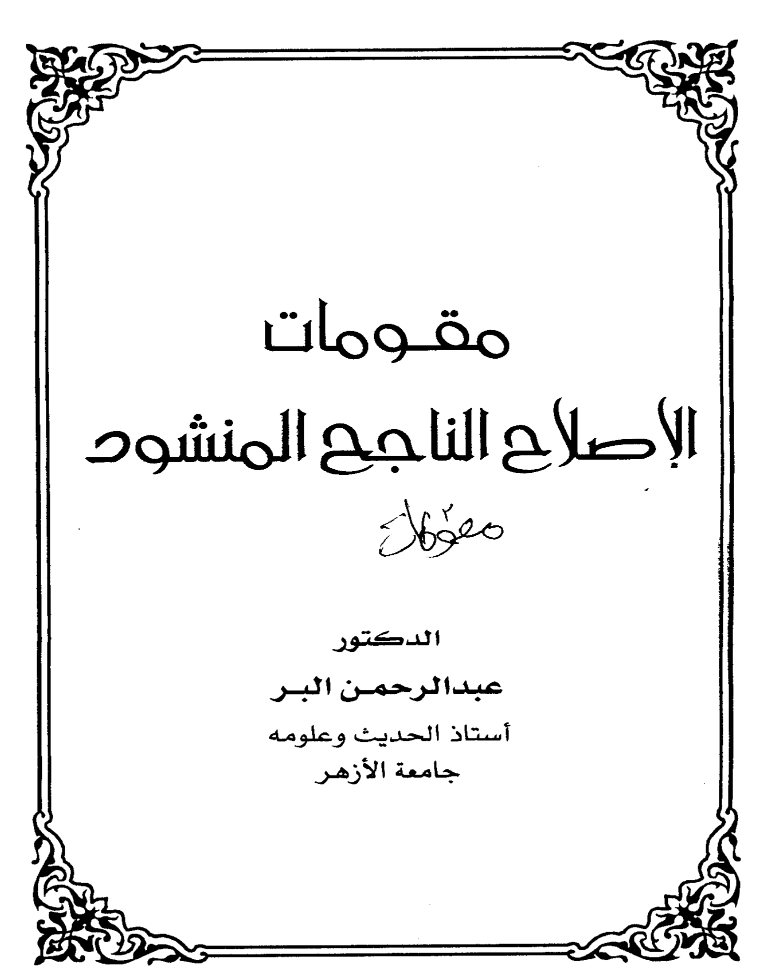
عائشة عبدالرحمن البر



مقومات
الإصلاح الناجح المنشود

معوقات

الدكتور
عبدالرحمن البر
أستاذ الحديث وعلومه
جامعة الأزهر

رقم الإيداع : 14434 / 2005-07-3
I.S.B.N.: 977 - 338 - 151 - X

يُطلب من دار التوزيع والنشر الإسلامية
٨ ميدان السيدة زينت ـ القاهرة
ت ٣٩١١٩٦١



مقومات الإصلاح الناجح المنشود

الحمد لله رب العالمين، وصلي الله وسلم وبارك على سيد الأولين والآخرين، وإمام الدعاة والمصلحين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه واتباعه ومن دعا بدعوته وسار بسيرته إلى يوم الدين .

أما بعد، فالحديثُ عن رسول الله ﷺ حديثٌ شائقٌ، لا تَمَلُّه النفوسُ الطيبة، ولا تنبو من ترداده الأسماعُ التي أَلِفَت الخيرَ، فهو رسولُ الله ﷺ، هو النورُ الذي أضاء الدنيا بعد إظلام، والهدى الذي جاء الدنيا بعد ضلال، هذا النبي الخاتم ﷺ لو أردتَ أن تلخصَ رسالتَه، بل رسالةَ الأنبياء أجمعين في كلمتين اثنتين، لقلت: هي رسالة الإصلاح.

وذلك ما سوف أتناوله فيما يلي:

أولا ميزة رسالة النبي ﷺ الإصلاحية

جاء ﷺ مصلحاً لهذه البشرية، لدينها ودنياها وآخرتها، وهو الذي يقول ﷺ في دعائه: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»[1] .

إنَّ أهمَّ ما يميز الإصلاحَ في رسالة رسول الله ﷺ أنها جاءت لإصلاح الدين والدنيا والآخرة.

- من المصلحين من جاء ليصلحَ الدين ومسائل العقيدة .
- ومن المصلحين من جاء ليصلحَ الحياة ومسائل المعاش.
- ومن المصلحين من جاء ليهتمَّ بالمعاد، وليربطَ الناس بالله وبيوم لقاء الله ويزهدهم في الدنيا.

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ.

لكنَّ رسالة الإصلاح التي جاء بها رسول الله ﷺ ليست كذلك، لقد جاء ﷺ ليصلحَ الدين والدنيا والآخرة.

وليقول ﷺ: إنه لا صلاح للبشرية إلا بتكامل جوانب الإصلاح.



ثانيا إصلاح النبي ﷺ متمم لإصلاح الأنبياء من قبله

ليس النبي ﷺ بدعاً في هذا؛ فهذا سيدنا شعيبٌ يقول: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ**﴾(هود:٨٨) وهو بذلك يختصر الرسالة في الإصلاح، والكلام - كما يقول علماء اللغة العربية - فيه حصر وقصر؛ أي ليس لي من غاية وليس لرسالتي من هدفٍ إلا تحقيقُ الإصلاح، ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ**﴾، هذا الحصر للرسالة في هذا المفهوم، يبين لك قيمة هذا الإصلاح.

وهذا سيدنا موسى عليه وعلى الأنبياء أفضل الصلاة وأتم التسليم، لمَّا أمره ربُّه ودعاه أن يخرج إليه ليتلقى التوراةَ، وأراد أن يجعلَ أخاه هارونَ من بعده على الناس، ماذا قال لهارون؟ قال: ﴿**يا هارون اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (الأعراف: ١٤٢) .

كأنه يقول له: أنت ستقوم مقامي، وأنا لي رسالة محددة وهي الإصلاح . فحينما يعهد إليه بالعهد الذي يحمله على عاتقه إلى أن يأتي موسى بالتوراة يبين له الرسالة المنوطة به، فيقول له: ﴿**اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾.

وهكذا أمر الله تعالى كلَّ الناس، فقال:﴿ **وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (الأعراف:٥٦).

وهكذا يبين شعيبٌ للناس رسالته التي بعثه الله بها، فيقول: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ٨٥) .

نفس العبارة التي أمر اللهُ بها كلَّ البشرية، هي نفسُها التي قالها شعيبٌ لقومه، والتي قالها سائرُ الأنبياء، والتي تختصر رسالات الأنبياء .

نزلت البشرية ومعها منهج واضح مع آدم عليه السلام، وكلما حصل إفسادٌ، أرسل اللهُ مصلحاً يُقَوِّم العوَج ويُصْلح الفسادَ، وهكذا توالت الرسل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ (المؤمنون:٤٤)، فكلما حاد الناسُ عن درب الإصلاح وبدأ الفسادُ يُطِلُّ بقرونه، جاء رسول يُصلح هذا الفساد، وهكذا توالى الرسل، حتى جاء خاتمهم محمد ﷺ ليقومَ بهذه الرسالة، رسالة الإصلاح بين الناس.

ثالثا الإصلاح فطرة إنسانية

الإصلاح ليس فقط رسالةً وواجباً شرعياً أمر اللهُ به الرسلَ وأتباعَهم، بل هو فطرةٌ إنسانيةٌ نمارسه بصورةٍ طبيعيةٍ في كثير من شؤوننا، فلو أن ثوبي الذي ألبسه أصابه شيء، فإني أصلحه، ولا يقبل الناس مني أن أسير به مقطوعاً طالما كان في إمكاني إصلاحَه، ولو أن جداراً من جدران بيتي أصابه عطَب أو انهدم، فالتصرف الطبيعي أن أصلح هذا الخلل، والناسُ تتعجب ممن يعيش في ظل أجواء فاسدة وبإمكانه أن يصلح؛ لأن هذا عكس الطبيعة البشرية؛ فالطبيعة البشرية جاءت لإعمار الأرض، وما معنى الإعمار إلا الإصلاح!

الإعمار معناه: أن الأرضَ الجدباء التي لا تنبت يجعلها تنبت فيحييها، والفسادُ الحاصل في العلاقات يصلحه، فالإصلاحُ فطرة، خلق الله الناس

عليها، نمارسه بصورة طبيعية في كثير من شؤوننا مع غفلتنا - أحيانا - عن كوننا نمارس نوعاً من الإصلاح.

جاءت الشرائع لتقويَ هذه الفطرة، وتؤكدَها؛ ولذلك تجد في تعاليم الإسلام مسائلَ كثيرةً جداً قيل عنها إنها عملية أخلاقية أو اجتماعية، ولكنها لون من ألوان الإصلاح؛ فحينما يبشر النبيُّ ﷺ بالجنة من يجد أذى على الطريق فيعزله عن طريق الناس.

فماذا نسمي هذه العملية؟ أليس إصلاحاً ليسهل حياة الناس؟ .

أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((**بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخذه، فشكر الله له فغفر له**)).

وفي رواية عند ابن حبان: ((حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير إلا غصن شوك كان على الطريق كان يؤذي الناس فعزله فغفر له)). وكأنه ﷺ يريد أن يُعَوِّد الأمةَ أن تكون أمةً بطبيعتها تمارس الفطرة الطبيعية (فطرة الإصلاح) .

رابعا مخالفة الإصلاح مخالفة للفطرة

وفي المقابل نجد أعداء الرسالات في كل وقت يبغونها عِوَجاً، يريدون العيشَ في ظل هذا العِوَج والانحراف، ﴿ **وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً** ﴾(إبراهيم:٣) يرون أن في أجواء الانحراف والفساد ما يساعدهم على تحقيق رغباتهم، وهذه أيضًا طبيعة في بعض الناس وهي تشبه طبائع الجراثيم الضارة التي دائما ما تنمو وتتكاثر في ظل أجواء النتن والعفن، فإذا طلعت عليها الشمس بضيائها، ووصلت إليها حرارتُها التي تحيي الموتى ماتت، لذلك هي لا تريد أن تحيا في الضوء أو أن تظهر في العلن، حتى أن الله تبارك وتعالى يخبرنا أنهم يقدمون أنفسهم للناس على أنهم مصلحون،

فيقول عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:١١-١٢).

والعجيب أن هذه النوعية التي خالفت الفطرة وخالفت الطبيعة وخالفت الشريعة، هذه النوعية ترى أن من أوجب واجباتها محاربةَ كلِّ دعوات الإصلاح وكلِّ أدوات الإصلاح.

ويحكي الله تبارك وتعالى لنا في سورة النمل عن سيدنا صالح وقومه، فيقول: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ. ۞ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (النمل: ٤٨-٤٩)، أي حلف بعضهم لبعض بالله أن يقتلوه وأهله ليلا وهم في بيات، أي أنَّ مهمة هؤلاء القوم الذين يفسدون ولا يصلحون التخلصُ من المصلح؛ لأنَّ بقاءَه من وجهة نظرهم يعني زوال الأجواء التي يستفيدون منها، ولهذا بيَّتوا قسَماً بالله فيما بينهم على أن يقتلوه ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (النمل:٤٩-٥٣).

خامسا الإفساد في الأرض بزعم الإصلاح

إن أكثر المفسدين يحرضون جماهير الأمة على دعاة الإصلاح: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، وحيثيات الحكم الذي قضى به فرعون، أنه قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر:٢٦)، وإن من نكد الزمان أن يرفعَ راياتِ الإصلاح زعيمُ المفسدين، أو أنْ ترفع راياتِ الفضيلة والعفة قوَّادةٌ بغِيٌّ، هذا ما حدث في كثير من فترات الزمان، فرعون الذي وصفه الله بأنه كان مسرفاً، وأنه كان عالياً

في الأرض، وبأنه كان من المفسدين هو الذي ينادي الجماهير إلى اتباعه؛ لأن موسى عليه السلام من وجهة نظر هذا الفرعون الأثيم يريد أن يُظهر في الأرض الفساد!

وهذا هو الذي فعله كلُّ أعداء الأنبياء والرسالات، وهذا الذي فعله أبوجهل، وهذا الذي يفعله آباء الجهل في كل زمان ومكان، دائما يصورون دعاة الإصلاح للجماهير على أنهم دعاة إفساد؛ ليحولوا بين الجماهير وبين سماع دعوة الله، وليحولوا بين الناس وبين معرفة الخير من الشر.

سادسا
الإصلاح الحقيقي شرط لعدم التعرض للهلاك وشـــرط لقبــول التــوبـة

إن نبينا المصطفي ﷺ حين جاء بهذه الرسالة العظيمة اعتبر أن أولي مهام مَن اتبعوه وأوّلَ واجباتِ مَنْ آمنوا به أن يحملوا هذه الرسالة، لأنه لا سعادةَ للناس في هذه الحياة ما لم يحملوا رسالة الإصلاح **﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾** (هود:١١٧)، إذا تخلَّوْا عن هذا الشرط، وهو شرط الإصلاح، فإنهم يتعرضون للهلاك .

بل إنك تعجب وأنت تقرأ القرآن حينما يدعو القرآن المخطئين إلى التوبة، فيعلن الحق جل وعلا أنه لا يقبل التوبة بمجرد إعلان لفظي، إنما يشترط على كل تائب من كل ذنب أن يحدث إصلاحاً، مثلما مارس الإفساد بالذنب.

اقرأ معي آيات التوبة في القرآن بأكمله، وسترى مصداق ذلك . وهذه بعض الأمثلة:

- قال تعالى: **﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾** (سورة العصر)، ما هو التواصي بالحق؟ هو القيام بعملية الإصلاح.

• حينما يتكلم الله عن المنافقين الذين راجعوا أنفسهم وصحت ضمائرهم، وفكروا في العودة إلى الطريق الواضح وإلى الطريق السليم، بين جلَّ وعلا أنه لا يقبل هذه التوبة إلا إذا رافقها قيامٌ بالإصلاح، فقال تعالى **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾** (النساء ١٤٥-١٤٦).

• الذي يكتم العلم، ويحبس الحق، وينطق بالباطل، ثم يذكر خطأه ويريد أن يصحح مساره ويتوب إلى ربه، يقول له: لا أقبل توبتك إلا إذا مارست إصلاحاً كما مارست إفساداً، يقول جل وعلا: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** (البقرة: ١٥٩-١٦٠).

فلا يكفي أن يتوبَ وأن يعتذرَ؛ بل يجب ـ كما سار خطوات في طريق الإفساد بكتم الحق ـ أن يسير خطوات في طريق الإصلاح بإظهار الحق.

• والذين رَمَوْا الناسَ بالسوء واتهموا البرآء بالعيب، ولاكوا أعراضَ الناس، ثم أرادوا أن يتوبوا وأن يرجعوا وأن يُعَادَ اعتبارهم في المجتمع المسلم، يوضح الله أنه لا يقبل منهم التوبة إلا إذا رافقها إصلاح، فيقول جل وعلا **﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** (النور:٤-٥).

فمثلما قام بالإفساد عن طريق الإساءة إلى أعراض الناس، لا بد حتى يقبل منه التوبة أن يرجع فيصحح خطأه ويصلح فساده، لا بد أن يمارس

الإصلاح، وهكذا الزاني، وهكذا السارق﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عليهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(المائدة:٣٩).

- بل الكافر الذي ارتد ورجع وارتد ورجع، وأراد أن يعود ويستقر على الحق، يقول له الله: مثلما كانت ردتُك إفساداً في الأرض، فلا يُقبَل إيمانُك إلا إذا مارستَ مع الإيمان الإصلاح: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عليهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(آل عمران: ٨٦ ـ ٨٩).(قضية واضحة في كل آيات القرآن).

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(الأنعام:٥٤).

فإذا وقعتَ في إفساد أيّاً كان وتريد أن تتوب لا بد أن ترجع، وأنت في ذهنك أن تمارس إصلاحا كما مارست إفسادا.

سابعا الإصلاح عنوان الأمة الأساسي

جاءت الرسالة الخاتمة رسالة النبي ﷺ لتجعل الإصلاح عنوانها الأساسي، والمسلمُ لا يُعَدُّ مسلما إلا إذا بدأ بممارسة هذه العملية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(آل عمران:١١٠) لم يقدم الأمر بالمعروف لقلة اهتمام بالإيمان، ولكن ليبينَ أن الخيرية لا تحصل إلا بالحركة نحو الإصلاح.

لا معنى لخيرية الأمة لمجرد أنها الأمة الفلانية، لكن خيريتها نابعة من أنها تحمل مشروعاً إصلاحياً مستمراً ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (التوبة:٧١) هذا هو العنوان الأساسي لهذه الرسالة ولمن اتبع صاحبها ﷺ، ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف:١٠٨).

والإصلاح الذي جاء به الحبيب ﷺ والذي أمرنا به والذي ندبنا إليه ودعانا ﷺ للقيام به، لا ينجح إلا إذا توفرت له مقومات وشروط.

ثامناً

رسالة الإسلام ومقومات الإصلاح المنشود

يبشر النبي ﷺ الذين يحملون رسالة الإصلاح من بعده، يقول: «إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيباً وَيَرْجِعُ غَرِيباً، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي»[1].

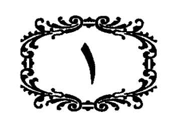
عَلم ﷺ أنه سيحصل حالة من الإفساد، لكنه يبشر من يتصدى لهذا الإفساد فيصلحه، ويُقوِّم هذا العوج، يقول: «فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي»،

والإصلاح الذي جاء ...

- **ما هي مقومات الإصلاح الناجح؟**
- **الذي يقول: أنا أحمل مشروعاً إصلاحياً، ما هي المقومات التي تبرهن على نجاح هذا المشروع وتؤكد صلاحيته؟**
- **عشر مقومات سأذكرها باختصار مع أدلتها من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وواقع الأمة، وذاكرة التاريخ.**

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه عن عمرو بن عوف رضي الله عنه.



المقوم الأول

الإصلاح لابد أن ينطلق من منطلق إيماني عقدي

فالإصلاح تحت أي عنوان غير عنوان الإيمان، إصلاحٌ ناقصٌ قاصرٌ منقطعٌ لا يمكنه أن يستمر، إنما الإصلاح الذي ينطلق من منطلقات قرآنية ويرتكز على مرتكزات عقدية، ويرى صاحبُه أنه يعمل ما يعمل لله، وأنه يقوم بما يقوم به لكونه يحمل رسالةً يُحاسَب عليها وسيسأل عنها، هذا هو الإصلاح الناجح، فلا يمكن أن يُتَصَوَّر أن يقوم إصلاحٌ أو يتم إصلاحٌ والنفوسُ فاسدة.

يُشَبِّه أحدُ المصلحين عمليةَ الإصلاح الاقتصادي والسياسي والاجتماعي وغيره، التي لا تنطلق من منطلق إيماني، ولا تجعل إصلاحَ النفس هو أولَ العناصر التي تعمل عليها، يشبه هذا بصنبور مفتوح في حوض، فيمتلئ الحوض وصاحب الحوض ينزح الماء ويفرغ الحوض، وهكذا يستمر الحال على هذا الوضع طالما أن الصنبور مفتوح، وأَسْلَمُ وأسهل حل لذلك هو إغلاق الصنبور .

فالإفسادُ والإصلاحُ إنما ينبع من النفس، فإذا أصلحتَها ضمنتَ نجاح المشروع، ولكن طالما هي فاسدة، فستتحايل على أي قانون، ويقولون: إن العدل في نفس القاضي وليس في نص القانون، لأن القاضي العادل يتحرى في القانون مواطن العدل، والقاضي الجائر يكون النص واضحاً أمامه ويلتمس ثغرة لكي يجور في حكمه، وهذا واضح بين الناس.

كان أحد السلف يعلم مريده ويقول له: يا بني إذا مررتَ بغنمٍ فنبحك كلبُها، فماذا تفعل؟ قال: أدفعه وأجاهده ما استطعت. قال: فإذا عاد للنباح؟ قال: أدفعه ما استطعت. قال: فإذا عاد، قال أدفعه... قال: يا بُنَيَّ هذا أمرٌ يطول، ألا أدلك على خير من ذلك؟. قال: نعم. قال: سلْ راعيَ الغنم أن يكفَّ كلبه.

فهي نفس القضية، فالنفس إذا استقامت على منهج الإصلاح فإنها تتحرك وتتبين وستستجيب لأي توجيه، أما إذا كانت النفس فاسدة فالعمل معها بلا فائدة؛ لأنها تتقلب، وهذا ما نراه ويلمسه كل إنسان.

وفي هذا جاء الحديث الذي أخرجه الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **((ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلَحتْ صلَح الجسدُ كله وإذا فسَدتْ فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب)).**

قارن بين: الذي جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكنوز كسرى وهو يلبس المرقعات وليس معه حارس، ويأتي من المدائن إلى المدينة وهو يحمل كل هذا المال، من غير أن يفكر في أن يمد عينه إليه، فضلاً عن أن يمد يده، قارن بين هذا وبين من يؤتمن على الخزائن فتهرب الأموال منها ولا يبقى إلا حديدها.

ما الفرق بين الاثنين؟

هل هو القانون؟

لا.. إنما القضية في النفس، فهذه نفس صلحت فعفت.. وهذه نفس فسدت؛ فمن أين تأتيها العفة.. لا يمكن .

وقارن بين حاكم يقول: لو عثرت بغلة في العراق لخشيت أن يسألني الله عنها، لِمَ لَمْ تُسَوِّ لها الطريقَ يا عمر؟ وآخر يقتل الناسَ ويترك الناسَ

يقتل بعضهم بعضاً. ما الفرق؟ الفرق أن هذه نفس صلحت فخافت فعفت فاستقامت، وهذه نفسٌ فاسدةٌ لا يصلحها شيء .

ولهذا كان اهتمام الإسلام أولاً بإصلاح النفوس وتصحيح العقائد باعتبار الإصلاح العقدي منطلق الإصلاح الناجح.

وأي مشروع إصلاحي يريد أن ينجح لابد أن يبدأ بهذه القضية، قضية إصلاح النفس، ولذلك تجد النبي ﷺ يقول في البداية: ((اللهم أصلح لي ديني))، أول شيء إصلاح الدين فهو الأساس، يبدأ بأن يصلحَ عقائدَ الناس، ويربطَ الناس بالله، ويربط الناس بالآخرة، ويربط الناس بالجنة ويربط الناس بما عند الله، ويقارن لهم بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة . نعم كان رسول الله ﷺ في ذاته مجموعة من الأجهزة التعليمية والإعلامية والتربوية، ولذلك استطاع أن يصوغ إنساناً حياً .

ولذلك لما صلح الإنسان، ثم قيل له: لا تشرب الخمر، لم يشرب الخمر، بعد أن كان يتمنى أن يموت ويدفن بجوار شجرة كرم أو شجرة عنب من شدة عشقه للخمر، على حد قول بعضهم:

- إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقُها.
- ولا تدفنني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها.

لكن عندما استقام الناس، قال الله تعالى لمن يشربون الخمر ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾ (المائدة:٩١) فقالوا: انتهينا يا ربنا، وبعد أن كان الزنا له دور معلومة ورايات منصوبة، جاءت الشريعة فأصلحت النفوس، وقال رسول الله ﷺ للشاب: أترضاه لأمك؟ أترضاه لأختك؟ أترضاه لكذا... فرجع الشاب وأبغض شيء إليه الزنا، فصلحت النفوس، ومن بعدها صلحت الأخلاق، واستقام أمر الحياة.

أما طالما بقيت النفوس على فسادها، فلا القانون سيصلح، ولا إصلاح الاقتصاد سيأتي بنتيجة، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٨١)، هذا أمر لا يمكن.

أي إصلاح لا ينطلق من منطلق إيماني فإنه ينبعث من مصلحة، وستجد واضع القانون وضع به مواد تنفعه شخصياً وينفع بها فئةً معيَّنةً، ستجد القائمَ بوضع القانون يترك لنفسه ثغرةً لينفذ منها، ستجد ضعفاء النفوس ومرضى القلوب يعرفون كيف يلتفون على هذا الأمر، وبالتالي يُفشلون كلَّ بَنْدٍ من بنود الإصلاح.

فأول مقومات الإصلاح الناجح: أن يبدأ بإصلاح النفس.

وأولى خطوات إصلاح النفس: أن تُطْلَق يدُ الدعاة الأكفاء لتربية الأمة، ليطلوا على الناس من كل المنابر[1]. ليبعثوا برسالة الإصلاح إلى أعماق النفوس، لابد أن يبدأ هذا.

أما طالما استمرت الحيلولة بين دعاة الإصلاح وبين جماهير الأمة؛ فستظل النفوس الفاسدة، وستظل النفوس المشبعة بالظلم تعمل عملها:

ولا تزال الليالي حبالى   يَلِدْنَ أُبَيَّ جهل في كل حين

وسيخرج أبو جهل وعندما يموت يأتي أبو جهل غيره، وعندما يقبض على فاسد يظهر غيره... وهكذا.



(١) اجهزة الإعلام والمنابر والمساجد والتعليم.. وغيرها



المقوم الثاني

أن يتبنى رسالة الإصلاح الصالحون

لا يمكن أن يحمل مشروعَ الإصلاح الناجح إلا أصحابُه الصالحون، فإذا تخيلت أنَّ مشروعات الإصلاح يمكن أن يتبناها فلان أو علان ممن لم تصلح نفسه فأنت واهم . لا يمكن هذا، كيف والله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾(يونس:٨١)، وقد أوضحت من قبل أن طبيعة المفسد أنه يتآمر على الإصلاح، فإذا جعلته هو الراعي على عملية الإصلاح، إذا أقمت لرعاية مشروع الإصلاح شخصاً تاريخُه فاسدٌ؛ فأنت بهذا تضع الأمانة في أيدٍ غيرِ أمينة، وهذا الذي حذر منه النبي ﷺ حين سُئِلَ: متى الساعة؟ فقال: «**إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة**» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[1] .

حينما يتكلم المفسدون في شئون الأمة ويوجهون الرأي العام فيها، فماذا تتوقع؟ .

يقول ﷺ: «إنَّ أمام الدجال - وفي رواية: بين يدي الساعة - سنينَ خدَّاعةً، يُصَدَّق فيها الكاذبُ، ويُكَذَّب فيها الصادقُ، ويُؤْتَمَن فيها الخائنُ، ويُخَوَّن فيها الأمين، وينطق الرُّوَيْبِضَة، قالو: وما الرُّوَيْبِضَة؟ قال: التافه - أو الفويسق - يتكلم في أمر العامة»[2] .

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ

(٢) أخرجه أحمد عن أنس، وأخرجه البزار والطبراني عن عوف بن مالك وله طرق تجعله حسنا.

وحين يتولى الحديثَ عن الأمة وعن مشروع الأمة التافهُ والفاسقُ فنحن على موعد مع الساعة .

من العجيب أن تفاجأ بأن قضية عظيمة جدًا، يأتي لمناقشتها على شاشات التلفاز الفنان فلان أو الأستاذ فلان الذي يعرف الناس سيرته غير الكريمة، هذا منطق معكوس.

إن وضع القضايا الكبرى في أيدي الأقزام، أو وضع القضايا في أيدي التافهين يعني إسقاطَ المشروع، ويعني إسقاط الأمة معًا .

لا يمكن أن يحمل مشروعَ الإصلاح إلا الصالحون أنفسُهم؛ لأن هؤلاء هم الذين يستطيعون أن يقدروا ما يحملون . هذا هو المقوم الثاني.





المقوم الثالث

أن يبدأ صاحب المشروع الإصلاحي بنفسه وبمن حوله

حينما بدأ النبي ﷺ رسالة الإصلاح، كانت أول عبارة قالها لقريش حينما جمعهم على الصفا أن قال لهم، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في صحيح البخاري: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم ما جرَّبْنا عليك إلا صدقاً . قال ﷺ: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» ... الحديث.

فقدَّم نفسَه قبل أن يقدِّمَ مشروعَه، فلا بُدَّ لحامل المشروع أن تكون حياتُه واضحةً للأمة، وأن يكون أطهرَ من ماء الغَمام، ولابد أن يكون بهذا الطهر والعفة والأخلاق العالية .

أما أن يكون حاملُ المشروع فاسداً في نفسه، أو في بطانته، وفاسدا في دينه، فلا نتصور إطلاقاً أن ينجح هذا المشروع الذي يحمله.

لا تحاول أن تصلحَ الناس وأنت فاسد! كيف تدعو الناس إلى مشروعك وأنت في واقع أمرك وآل بيتك ومن حولك يفسدون في الأرض؟ هذا عبث . لذلك يقول سيدنا شعيب لقومه وهو يدعوهم ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ**﴾ (هود:٨٨).

فإذا تقدم شخص ليقول: نحن نقوم بعملية إصلاح، فلا بد أن يظهر بوضوح أمام الناس ويبين هذا الإصلاح، ويُظْهِرَ الإصلاح في نفسه وأهل بيته.

كان سيدُنا عمرُ رضي الله عنه يقول: «إن الناس ليؤدون إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، وإن الإمام إذا رتع رتعت الرعية» . وحين كان يريدُ أن يأمرَ الناس بأمرٍ أو ينهى الناس عن شيء، يذهب أولاً إلى أهل بيته، يقول: «إني نهيت

الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبْتم هابوا، وإني والله لا أُوتى برجل منكم وقع فيما نهيتُ الناس عنه إلا أضعفت له العذاب، لمكانه مني، فمن شاء منكم أن يتقدم ومن شاء منكم أن يتأخر» والقصص عنه في هذا كثيرة متواترة .

وسيدُنا **عمر بن عبدالعزيز** تولى الإمارة، فرأى إفساداً كبيراً وأراد الإصلاح، **فماذا فعل؟**.. بدأ بنفسه.. دعا أهله.. فاطمة بنت عبدالملك (زوجته)، كان أبوها وأخوها وجدها وزوجها خلفاء، حازت المجد من جميع أطرافه، خيَّرها بين أن تَرُدَّ ما بيدها إلى بيت المال ليكون ملكاً لعموم المسلمين وتصبر على الحياة الشديدة معه، أو أن تفارقه ﷺ، فرضيتْ بالبقاء معه على شَظَف العيش، وهي التي قيل فيها:

بنت الخليفة والخليفة جدها   أخت الخلائف والخليفة زوجها

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن خليد بن عجلان قال: كان عند فاطمة بنت عبدالملك جوهر فقال لها عمر: من أين صار هذا إليك؟ قالت: أعطانيه أمير المؤمنين . قال: إما أن ترديه إلى بيت المال، وإما أن تأذنيني في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت . قالت: لا، بل أختارك على أضعافه لو كان لي . فوضعته في بيت المال . فلما ولي يزيد بن عبدالملك قال لها: إن شئتِ رددتُه عليك أو قيمتَه . قالت: لا أريده، طبت به نفسًا في حياته وأرجع فيه بعد موته! لا حاجة لي فيه . فقسمه يزيد بين أهله وولده.

بدأ عمر بن عبدالعزيز رحمه الله بنفسه، وذلك حتى إذا نادى الناسَ إلى الإصلاح يكون هو أول من يقوم به، وكيف لا وقد كان الرسلُ يبدؤون دائماً بأنفسهم.

أما أن يُهْدَم البيتُ فأدعو الناسَ إلى إقامة جدرانه ولا أعملُ معهم، وأهدم بيوتا أخرى، فهذا غير منطقي، فالذي يريد أن يقدمَ إصلاحاً حقيقياً لابد أن يتبين الإصلاحُ فيه وفيمن حوله .

إن من أهم جوانب العظمة في سيرة النبي ﷺ أنَّ حياتَه كانت مكشوفةً للشمس، بمعنى أن ما يحدث في بيت النبوة يعرفه كلُّ الناس، لأنه ليس عنده ما يُعَاب به.

جمع ﷺ تسعَ نساءٍ في وقت واحد، كل واحدةٍ تتحدث عما يجرى في بيتها.. حياةٌ مكشوفة .. لا يُوجَد أحدٌ من أعدائه (وهم كُثر) الذين يلتمسون العيب، وضع يده في حياته ﷺ على عيب، لأن المشروع الذي يحمله رسول الله ﷺ يطبقه على نفسه ويبدأ بآل بيته، ولذلك لما فكر بعض نسائه وطلبن منه التوسعة بعد أن فتح الله عليه، ويطلبن إليه ما ليس عنده من النفقة، عندئذ آلى النبي ﷺ وحلف ألا يقربهن شهرًا، ورجع بعد تمام الشهر فقال لهن: ﴿**إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً**﴾ (الأحزاب:٢٩،٢٨)، فاخترن جميعا الله ورسوله والدار الآخرة[١] .

فالذي يحمل مشروع إصلاح ويعلن أنه يُصلح، لابد أن تكون حياتُه مكشوفةً لجماهير الأمة، لابد أن يكون كتاباً مفتوحا، يعرف الناس ما له وما عليه، وما لأولاده وما عليهم، وما لأقربائه وما عليهم، وهل استفاد أحدٌ من أقربائه من منصبه أم لا . حملة مشروع الإصلاح لابد أن يكونوا كذلك.



(١) أخرجه الشيخان عن جابر رضي الله عنه.

٤ المقوم الرابع

أن يراعي المشروع الإصلاحي طبائعَ الناس وأحوالَ الزمان

وأن يتدرَّج بالناس التدرجَ المناسب، لا يبطئ البطءَ الذي يفقد الأمل في الإصلاح، ولا يندفع الاندفاع المتهور الذي يبطل هذا المشروع.

فهذا سيدنا **عمر بن عبدالعزيز** ﷺ وهو يقدم هذا النموذج عندما تولى الخلافة وبايعه الناس، رجع إلى بيته ليقيل، فدخل عليه ابنه عبدالملك فقال له: يا أبت على ما تقيل وقد تداركت عليك المظالم؟ لعل الموت يدركك في منامك وأنت لم تقض دأب نفسك مما ورد عليك . فشدَّد عليه، فلما كان اليوم الثاني فعل به مثل ذلك.

قال عمر: يا بني إن نفسي مطيتي وإن لم أرفق بها لم تبلغني، يا بني لو شاء الله عز وجل أن ينزل القرآن جملة واحدة لفعل، نزل الآية بعد الآية حتى استقام ذلك في قلوبهم، يا بني إني لم أجد الحقحقة ترد إلى خير[1] .

لا بأس بالتدرج، ولكن التدرج الذي يمشي بخطى طبيعية، أما التدرج الذي يحيى سُنَّة ومعها مائة بدعة، وبعد سنوات يقيم سُنَّة ومعها مائة بدعة أخرى، فهذا ليس تدرجًا . هذا قتل ووأد لمعنى الإصلاح، كيف وقد قيل: إن العدالة البطيئة ظلم محقق .

لا نقول: إن المصلح يندفع ويتعجل، فليس هذا منهج الإسلام. ولكن الإسلام علمنا كيف نصلح الفساد الأخلاقي للبشر، كانوا يشربون الخمور وكانوا يزنون وكانوا يسرقون، ولم يبدأ الإسلام بمنعهم من الزنا أو القتل، إنما بدأ يصلحهم **شيئًا فشيئًا**، حتى استقام أمرهم، وبالتالي

(١) أخرجه أحمد في الزهد، والحقحقة: السير السريع المتعب الذي يودي إلى عطب الدابة وهلاكها.

حققوا معاني الإسلام، وفي سنوات معدودات كان قد أقام صرح الحق والعدل والهدى على أنقاض الجاهلية والظلم والفساد .

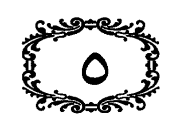
فالمشروع الإصلاحي الناجح هو المشروع الذي يراعي طبائع النّاس، ولا يحمل الناس على الحق مرة واحدة لأن الناس لا يحتملون، لكنه أيضًا لا يبطئ في تدرجه البطء القاتل، إنما يتحرك بما يناسب حال الأمة ومصلحة الأمة؛ وهكذا كان النبي ﷺ وهكذا كان المصلحون من بعده.

دخل عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز على والده فقال: يا أمير المؤمنين ما أنت قائل لربك غدًا إذا سألك، فقال: رأيتَ بدعةً فلم تُمِتْها أو سُنَّة فلم تُحْيِها؟ فقال له أبوه: رحمك الله وجزاك من ولد خيرا، فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير، يا بني إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليَّ فتقاً تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون عليَّ من أن يهراق في سببي محجنة من دم . أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا بالحق وهو خير الحاكمين؟[1] .

وعن ميمون بن مهران أن عبدالملك بن عبدالعزيز قال له: يا أبة ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل، فوالله ما كنت أبالي ولو غلت بي وبك القدور في ذلك . قال له أبوه: يا بني إنما أنا أروض الناس رياضة الصعب، إني لأريد أن أحيي الأمر من العدل فأؤخره حتى أخرج معه طمعًا من طمع الدنيا، فينفروا من هذه ويسكنوا لهذه .



(١) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة.



المقوم الخامس

أن يكون الإصلاح شاملاً لكل مجالات الحياة

فلا يصح أن نقول: إن مهمتنا الإصلاح الاقتصادي فقط، إنما لابد أن يكون الإصلاح عامًا: (اقتصادي ـ سياسي ـ علمي ـ أخلاقي ... إصلاح في كل المجالات)؛ لأن الإنسان وحدة واحدة، لا تستطيع أن تفصل جانبًا منه عن جانب، لا تستطيع أن تجعل الإنسان مؤمنًا في جانب أو مصلحًا في جانب ومفسداً في الجانب الآخر .

لذلك قلنا في البداية: إنه لابد أن تصلح النفس لكي يكون المشروع كاملا؛ وقتها سيكون هناك إصلاح في كل شيء.

الأمة العربية قبل الإسلام كانت أمة يحكمها الاستبدادُ بأقسى صور الاستبداد، وكان هناك السادة والعبيد، وكان يشيع عندهم التعصب للقبيلة ولشيخ القبيلة، كان هناك استبداد، وربما تفاخرت القبيلة بقدرتها على الاستبداد والظلم، كما في معلقة عمرو بن كلثوم الذي افتخر بقدرة قومه على الظلم فقال:

بغاة ظالمون وما ظُلِمنا ... ولكنا سنبقى ظالمينا

فكان معلنا للاستبداد ومعلنا للتعالي على الناس:

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا

لهذا فإن رسول الله ﷺ لم يقل: إننا يجب أن نصلح الاقتصاد أولا، ولم يقل ما قاله فرعون ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى ﴾ (غافر:٢٩)؛ حتى نجتاز هذه المرحلة.

لا، ولكنه ﷺ بدأ وهو ما يزال في مكة قبل أن يقيم دولة، يتلو على أصحابه قول الله عز وجل: **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بينهم﴾**، فهذا إصلاح سياسي، وهو لا يزال بعد لم يقم الدولة.

وايضًا وهو لا يزال بعد لم يُقِمْ الدولة، بدأ الإصلاح الاقتصادي، فكثير من الآيات المكية تتكلم عن الإنفاق، قبل أن تُشْرَع الزكاة، وقبل أن تقام الدولة التي ستجمع هذه الزكاة وتنظم هذه المصارف.

كذلك وهو لا يزال بعد لم يُقِمْ الدولة، دعا إلى ترك الظلم.

فهذا مشروع كامل؛ بحيث لما أقام الدولة في المدينة طبقه كاملا، ببساطة شديدة جدًا.

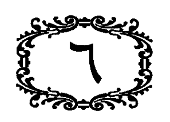
الحُباب بن المنذر كان جندياً عادياً من عامة الجنود لم يجد في نفسه حرجاً في أن يتقدم باقتراح لقائد الجيش مع وجود كبار الصحابة وكبار الناس وكبار القادة، ويقول له: أهذا منزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟، فقال ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فوضح الحُباب أن هذا الرأي مجانب للصواب وقال: (إن كان كذلك فإني أرى أن ننزل إلى أدنى ماء قريب من القوم ونُغَوِّر ما وراءه من القُلُب ومن الآبار، ثم نجعل على هذا البئر أو على هذا القليب حوضاً؛ فنشرب ولا يشربون)، ولم يكن يُسمع عن الحباب بن المنذر قبل هذه الواقعة، وتقدم باقتراحه القيم مع أنه يرى أن من حول النبي ﷺ قادةَ الناس وسادتهم أبا بكر وعمر وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وغيرهم رضي الله عنهم جميعًا...

لا يمكن أن ينجح إصلاح اقتصادي في ظل استبداد؛ لأن الذي يحدث في ظل الاستبداد السياسي أن زمرة المنافقين يؤيدون المستبد، ويجاملونه في الباطل، وذلك لمصالحهم الاقتصادية، إذاً هو لكي يجامل المستبد سوف يفسد في الاقتصاد، إذاً أنت إذا حاولت أن تصلح تحقق الفساد.

وهكذا إذا فكرت في إصلاح سياسي واقتصادي وتركت الأخلاق وتركت أجهزة الإعلام تملأ الدنيا دعوة إلى الرذائل، ستجد النفسَ الفاسدةَ تنقضُّ على كل هذا . ستجد السارق والزاني وآكل الرشوة وآكل الربا، وستجد كلَّ المظالم والمفاسد قد حصلت في الأمة .

إذاً لكي ينجح المشروع لابد أن يكون شاملاً لكل مجالات الحياة، ولابد أن يشمل مجال الإصلاح الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والأخلاقي والتعليمي والإعلامي؛ لكي تكون الأمة حاملة لمشروع واحد ومتعاونة في تحقيقه، وعندئذ يكتب الله له النجاح.





المقوم السادس

أن يقوم على إقناع الأمة بجدواه وعدم إكراه الأمة عليه

لا ينجح الإصلاحُ إذا فُرض على الناس فرضاً، فإذا كان هناك مشروعٌ للإصلاح؛ فلابد أن يقتنع الناس به، ولا بد من عرضه على عقول الأمة، فإذا اقتنعوا شاركوك فيه، أما أن تفرضه عليهم فرضًا، فلا يمكن أن يكون مشروعاً إصلاحياً.

قضية فرض مشروع على الناس من غير إقناع هي مبدأٌ فرعونيٌ قديمٌ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر:٢٩)، المشروع الإصلاحي الفرعوني يتلخص في: ألا يرى أحد شيئاً إلا ما يراه فرعون، فمن أين للناس أن يقتنعوا بهذا؟

فعندما تقول لي: ساعدني في هذا المشروع، ولابد أن نتعاون فيه؛ فكيف نتعاون في شيء أنا غير مقتنع به أصلاً؟.

عندما يقود قائد أمةً إلى معركة، والأمةُ غيرُ مقتنعة بجدوى المعركة، والجنودُ غير مقتنعين بجدوى المعركة؛ **فماذا سيحدث عند لقاء العدو؟**، سيرفع الجميعُ الراياتِ البيضاء، وبمجرد أن يجد أحدهم فرصةً للهرب سيطلق ساقيه للريح، وهذا ما يحدث عادة.

وهكذا فإن حملة مشروعات الإصلاح، لا بد أن يعتمدوا على اقتناع الأمة بهذا المشروع، ولا بد أن يقدم المشروع إلى الأمة ولا يفرض على الناس فرضًا، ولا يُكْرَه الناسُ عليه، فهذا هو الذي يجعل الأمة تشارك وتساعد.

لذلك تعالَ إلى المشروع الإسلامي للإصلاح تجد أن الله تعالى يقول ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩)، يوضح أنه سيعرض الحق، وسيقدم أدلته وبراهينه، وسيعمل على إقناع العقول بجدواه وأصحيته، ثم يترك للناس الخيار في قبوله أو رفضه من غير إكراه ولا إجبار .

إذاً لكي ينجح المشروع الإصلاحي، فلا بد أن تقتنع الأمةُ بجدواه وأن تدرك قيمته؛ حتى يشارك الأفراد بإيجابيةٍ في هذا المشروع.

وإذا نظرتَ في سير الصحابة؛ رأيتَ كيف كانوا يتسابقون في حمل الرسالة وفي الدفاع عن الإسلام وفي تقديم الإسلام، وتجد من ذلك عجباً! فكلنا يحفظ مقولة ربعي بن عامر، وإن كنا لا نعرف عن ربعي بن عامر الكثير، ولكن هذه المقولة تبين أنه شخص أدرك رسالةً اقتنع بها تمام الاقتناع، يقول: (خرجنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة)، إنه رجل مقتنع بما خرج من أجله، وبما آمن به.

وحينما تطلب من الأمة أن تضحي من أجل مشروعك وهي غير مقتنعة به فأنت تضرب في الخيال، لكن إذا اقتنعتْ ضحَّتْ.

قل لي بربك: ما الذي يجعل خُبَيْبَ بنَ عديٍ يصبر على الصلب والقتل، ولما أتوه وهو مصلوب نادوه وناشدوه: أتحب محمداً مكانك؟ فقال: لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه[1] .

(١) اخرجه الطبراني من حديث عروة بن الزبير مرسلا.

إنه رجلٌ مقتنعٌ برسالته ومشروعه؛ لذلك لا يُبالي بما يقدم من تضحياتٍ في سبيله .

أما أن تَسُوقَ الأمةَ سَوْقاً ، وأن تضحي من أجل مشروعٍ لم تقتنع به ولم تؤمن به ولم تعرف جدواه؛ فلابد أن يقع الفساد في الأرض، ولا بد أن يسقط مثل هذا المشروع.



٧ المقوم السابع

أن تكون بوابته الحرية .. ومنهجه الشورى .. وسنده العدل

فالإصلاح لا يمكن أن يحصل مع الاستبداد والجبروت، فهذا أمر غير منطقي ولا تقبله العقول بطبيعتها.

في قصة سيدنا موسى لما خرج من المدينة على حين غفلة من أهلها - ونحن نعرف القصة - وكز الرجل فقتله، وفي اليوم الثاني وجد نفس الرجل الذي من شيعته يقاتل رجلاً آخر فاستغاث به مرة أخرى، فقال له: إنك لغوي مبين، يوضح القرآن ذلك فيقول: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (القصص:١٩).

وسأعلق على الجزئية الأخيرة من الآية وهي: ﴿إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾، لا يصلح أن تكون جبارًا ومصلحًا في نفس الوقت، فحينما تقول: إنك مصلح، فلا يتصور أن يكون هناك جبروت وإصلاح في وقت واحد، هذا غير منطقي . وهذا ما فهمه ذلك الرجل بالمنطق البسيط والفطرة الطبيعية .

كمن يقول: الديمقراطية لها أنياب، فكيف تكون ديمقراطية إذاً؟

لا يمكن أن ينجح مشروع إصلاحي في ظل استبداد، بل لا بد من الحرية، ولا بد أن تعبر الأمة عن رأيها بكل حرية، ولا بد أن يقوم المشروع الناجح على الشورى، فلا رأي لخائف، ولا عقل لمستعبد؛ لأنه حين يشيع الاستبداد؛ يكون عقل الأمة عند حذاء المستبد، لا تفكر، وحتى لو فكرت فالخائف إذا فكر يكون تفكيره مرتعشا، ورأيه مشوشاً .

وبالتالي لا يمكن أن تدعي أنك مصلح أو تريد الإصلاح وفي الوقت نفسه تخنق حريات الناس وتمنع الشورى، بل لا بد من الشورى ولا بد من العدل .

ما الذي كان يمكن أن يحدث لو لم تكن في الأمة حرية، ولو لم يقم الحباب بن المنذر ﷺ بعرض رأيه ومشورته على النبي ﷺ في بدر؟ أو لو لم يقم سلمان الفارسي ﷺ بعرض رأيه بكل حرية على رسول الله ﷺ في الخندق؟ ما الذي كان يمكن أن يحدث لو لم يحصل هذا؟!

لذلك تجد في المنهج الإسلامي ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى:٣٨)، ولما أدّت الشورى في غزوة أحد إلى الخروج للقاء العدو خارج المدينة على خلاف رغبة رسول الله ﷺ وتقديره، ثم انتهت المعركة بما انتهت إليه بسبب مخالفة الرماة لأمر رسول الله ﷺ، وقال البعض: لو أطاعونا ولم يخرجوا من المدينة ما قُتلوا، أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ تأكيدًا لمبدأ الشورى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران:١٢٩) إلزاماً للنبي ﷺ بالشورى على الرغم مما حدث. فإذا كان النبي المعصوم الذي يتلقى الوحي من الله مأموراً بأن يشاور أمته، وأن يشاور من حوله.

ويقول لأبى بكر وعمر ﷺ: والله لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما[1].

ويقول عنه أبو هريرة ﷺ: ما رأيتُ أحدا قط كان أكثرَ مشورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ [2].

إذا كان هذا النبي المعصوم يفعل هذا، فما بالك بمن دونه؟

إن أي حامل لأي مشروع إصلاحي لن يبلغ أن يكون مثل رسول الله ﷺ، لن يكون معصوما؛ ولذلك فهو أولى أن يلتزم الشورى منهاجًا لمشروعه الإصلاحي .

إن مدخل الإصلاح الناجح هو الحرية، ومنهج الإصلاح الناجح هو الشورى، وعماد الإصلاح الناجح هي العدالة.

---

(١) أخرجه أحمد عن عبدالرحمن بن غَنْم ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي.

كان عمر ﷺ وأرضاه، حينما يعطي عماله[1] خطاب التكليف، يقول لهم: ((أيها الناس: إن الله عظم حقه فوق خلقه، ثم يقول: إني لم أبعثكم أمراء ولا جبابرة، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يُقْتَدَى بكم، فلا تمنعوا الناس حقوقهم فتظلموهم، ولا تنزلوا بهم الغياض[2] فتضيِّعوهم، ولا تظلموهم فتفتنوهم))[3].

هكذا كان عمر ﷺ وهو يعطى خطاب التكليف يوضح لعماله أنهم ذاهبون لإصلاح أحوال الناس ومساعدة الرعية، ثم يقول ﷺ: أما والله، لا يأتيني أحد برجل ظلمه أو أخذ حقه، إلا وجعلت له القصاص منه.

كان يقف ﷺ بالجابية في موسم الحج، والناس من جميع الأقطار المختلفة قادمون، فيقول: أيها الناس إني لم أبعث عمالي إليكم ليضربوا أبشارَكم ولا ليأخذوا أموالَكم، وإنما بعثتُهم ليعلموكم كتابَ ربكم وسنةَ نبيكم، فمن فُعل به غير ذلك فليرفعه إليَّ، فوالله لأُقِصَّنَّه منه. فقام سيدنا عمرو بن العاص ﷺ وقال: يا أمير المؤمنين: أرأيتَ لو أن والياً أدَّب بعضَ رعيته، أكنتَ تُقِصُّه منه؟!، قال: إي، والذي نفسي بيده لأُقِصَّنَّه منه. وقد رأيت رسول الله ﷺ أقص من نفسه[4].

ولهذا قال ﷺ: (إذا كانت أمراؤكم خيارَكم، وأغنياؤُكم سمحاءَكم، وأمرُكم شورى بينكم، فظهرُ الأرض خيرٌ لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤُكم شرارَكم، وأغنياؤكم بخلاءَكم، وأمرُكم إلى نسائكم فبطنُ الأرض خيرٌ لكم من ظهرها)[5].

---

(١) أي موظفيه الذين سيتولون أمور الناس.
(٢) الغياض: الأرض الجرداء.
(٣) وفي رواية: لا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم.
(٤) أخرجه أبو داود والبيهقي.
(٥) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ.

فلكي تقدم مشروعاً إصلاحياً ناجحاً فمدخل هذا المشروع الناجح هو الحرية، والإسلام قدم الحرية حتى في اختيار الدين، فلم يُكرِهْ أحداً على الدخول في الإسلام.

بل يوجد أعظم من هذا أيها الأحباب، مما لا يلتفت إليه كثيرٌ من الناس، أن الجهاد في سبيل الله شُرِع حتى يؤمنَ مَنْ يؤمنُ برغبتِه، ويكفرَ مَنْ يكفر برغبته، ولا يُكْرَه أحدٌ على الكفر، فالحربُ شُرعت والجهادُ شرع لتحرير إرادة الناس، وليس لإكراههم على الدخول في الإسلام، ويوضح ذلك قول الله: **﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ﴾** (البقرة:١٩٣).

لما كان كسرى يسيطر على الفرس ويمنعهم من الإسلام، فإن الإسلام جاء يأمر الأكاسرة بترك الحرية للناس من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ولما كان قيصر يسيطر على الروم ويأمرهم بالكفر، فقد جاء الفتح الإسلامي لا ليكره الناس على الدخول في الإسلام، ولكن ليطلب من قيصر أن يترك للناس حرية الاعتقاد، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وهذا أعلى وأهم شيء، الحرية في العقيدة، فما بالنا بما دون ذلك من الأمور.

وما دام هناك حرية،

وما دام هناك شورى،

وما دام هناك عدالة،

فإن بهذا ينجح المشروع.





المقوم الثامن

اعتبار وحدة الأمة صمام الأمان لمشروع الإصلاح

فلا يعمل المشروع الإصلاحي الناجح لصالح فئة، ولا يصوغ قوانين لصالح طائفة، إنما يصوغ للأمة كلها ويعتبرها وحدة واحدة، حتى غير المسلمين ﴿**لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (الممتحنة:٨).

والنبي ﷺ يقول فيما أخرجه أبو داود: «**ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة**»، وأكد النبي ﷺ على حق غير المسلم في المجتمع المسلم، فطالما أنه لا يظاهر علينا ولا يحمل علينا سلاحًا، بل يعيش معنا، فلا بد أن نحميه، بل لا بد أن نقسط إليه ﴿**أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ**﴾ (الممتحنة:٨).

فالمشروع الناجح لا يلعب بهذه الورقة ليفسد الناس.

إنما حينما يأتي مشروع ويكون تركيزه بأن يفرق بين الطوائف ويبذر بذور الشقاق بين الناس، فتحس فئة أنها مستفيدة من هذا المشروع وفئة أخرى بأنها متضررة، **فما الذي سيحدث؟**، كما نرى في كل بلاد الدنيا ستقوم الحروب، وستثور المشاكل، فمشروع الإصلاح الناجح هو مشروع يعمل لصالح الأمة بكل طوائفها، ولا يعمل لصالح فئة ولا حزب ولا طائفة ولا مذهب، إنما يعمل للأمة كلها.

وهكذا كان النبي ﷺ، عندما دخل المدينة كتب الوثيقة بينه وبين اليهود، وبينه وبين المشركين الذين يعيشون في داخل المدينة من أهل يثرب، وثيقة لإقامة الحقوق وصيانة الحرمات، ثم جاء الإسلام ليؤكد أن الأمة وحدة واحدة، فيقول الله عز وجل: **﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾** (الأنبياء:٩٢).

ويقول النبي ﷺ فيما صححه ابن حبان عن ابن عمر: «**المؤمنون يد على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، يجير عليهم أولهم، ويرد عليهم أقصاهم، ولا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده**».

فهذا هو المنهج، وهذه هي طبيعة الإصلاح النبوي الذي سيكتب له النجاح.





المقوم التاسع

أن تشارك فيه الأمة كلها بكل أفرادها وطوائفها

فلا بد أن تعمل الأمة كلها في مشروع الإصلاح؛ لذلك جعل الله تبارك وتعالى فريضة الإصلاح على الناس أجمعين، كما قلنا في البداية، إن من أخطأ وأراد أن يتوب فلا بد له أن يصلح، الكل يقوم بهذه العملية (حاكمًا أو محكومًا أو طفلاً أو شابًا أو فتاة أو رجلاً أو امرأة).

ولنبدأ بالعنصر الذي يستبعد بعض الناس أن يشارك في عملية الإصلاح، **وهو الطفل**، ففضلاً عن قصة أصحاب الأخدود المعروفة فهاك نموذجاً عمليًا للطفل المصلح:

لما سمع **زيدُ بن أرقم** ﷺ عبدالله بن أُبَيّ ابن سَلُول ورجالَه وهم يحلفون بالله إذا رجعوا إلى المدينة ليخرجون رسول الله ﷺ، لم يسكت، وأبلغ ذلك لعمه أو لعمر بن الخطاب، الذي قام بدوره بإبلاغ النبي ﷺ بذلك . قال زيد: فدعاني (أي النبي ﷺ) فحدثته فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبدالله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني رسول الله ﷺ وصدَّقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردتَ إلى أن كذَّبك رسولُ الله ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى **﴿إذا جاءك المنافقون﴾** فبعث إليَّ النبي ﷺ فقرأ فقال: «**إن الله قد صدَّقك يا زيد**»[1].

فهذا طفل، ولكنه أدرك أن عليه دوراً فأداه .

---

(١) أخرجه الشيخان.

نموذج ثان من النساء، السيدة أم سليم (الرميصاء)، والدة سيدنا أنس بن مالك ﷺ لما دخل الإسلامُ قلبَها طلبتْ من زوجها مالكَ بن النضر أن يدخل في الإسلام، فأبى، فأبتْ أن تعيش معه، وقالت: إما الإسلام وإما المفارقة، فانصرف مالك لا يُدْرَى أين ذهب، وجاء أبو طلحة الأنصاري - وهو لا يزال مشركا - يريد أن يتزوجها، فماذا قالت له؟

عن أنس ﷺ قال: خطب أبو طلحة أم سليم فقالت: والله ما مثلك يا أبا طلحة يُرَد ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تسلم فذاك مهري وما أسألك غيره . فأسلم فكان ذلك مهرها .

قال ثابت البناني: فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرا من أم سليم[1].

جعلت مشروعها الإصلاحي يبدأ من مهرها، **أليس هذا إصلاحا؟** أن تنقل رجلاً من الكفر إلى الإسلام؟ فتأخذ أجره وأجر جهاده من غير أن ينقص ذلك من أجره شيء.

ونماذج النساء المصلحات كثيرات.

فإن تكن النساء كمن ذكرنا ... لفضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ... ولا التذكير فخر للهلال

نموذج ثالث من عامة الناس، يحكي الله لنا في سورة (يس) أنه أرسل ثلاثة من الرسل ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ** ﴾ (يس١٣-١٤). إلى آخر الآيات، فانظر معي إلى هذا الرجل المؤمن الذي رأي الرسل ورأي على وجوههم الصلاح والإيمان، وأدرك أن هذا مشروعٌ

---

(١) أخرجه النسائي بسند صحيح.

إصلاحيٌ ناجحٌ وصحيحٌ، فلم يتوانَ ولم يتردد وقام مباشرة بعملية الإصلاح، كما يوضح القرآن: ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾، إلى آخر الآيات، فهذا نموذج عادي من عامة الناس أدرك أن هذا واجبه.

ونموذج رابع من بيوت الملك والعز والشرف، رجل من آل فرعون قام بدوره في الوقت المناسب.

وأما نماذج الحكام المصلحين فحدِّث ولا حرج، فهذا أول الحكام سيدنا رسول الله ﷺ، وسيدنا أبو بكر وسيدنا عمر، وسيدنا عمر بن عبدالعزيز... نماذج لا حصر لها .

وهكذا طوائف الأمة تشترك في هذا المشروع .

لا نجاح لمشروع الإصلاح الذي يريد نقل الأمة إلى مصاف الأمم المتقدمة إلا حينما يدرك كل إنسان أن عليه دوراً وأن عليه واجباً، أما حينما تتقوقع الأمة، ويهتم كل فرد بنفسه، ولا يهمه أن يرى فسادًا قائمًا، ولا يشغله أن يقوم عوجًا فسوف تغرق السفينة بمن فيها.

ويبين لنا رسول الله ﷺ مثالا لذلك فيقول: «**مَثَلُ الْقَائِمِ على حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا على سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا على مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا! فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا على أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[1] .

(١) أخرجه الشيخان عن النعمان بن بشير.

فلو تركوهم كان ذلك كفيلاً بأن تغرق السفينة بما فيها ومن فيها.

وضرب الله لنا مثلاً ببني إسرائيل فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ على لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: ٧٨ _ ٧٩).





المقوم العاشر

أن يكون دمُ المسلم وعِرْضُه خطاً أحمرَ لا مجال للاقتراب منه

هذا هو أهم هذه المقومات: أنه لا يمكن أن يكون الإصلاح ناجحًا إلا إذا كان دمُ المسلم وعِرْضُه خطاً أحمرَ لا مجال للاقتراب منه.

فكيف تُصلح وانت تقتل؟ كيف تصلح وانت تسفك الدماء أو تنتهك الأعراض والحرمات؟ كيف تصلح وانت تتعرض لحرمات الناس وتنتهك خصوصيات الناس؟

لا يمكن أن يكون ثمة مشروعٌ إصلاحيٌّ يحمل السيفَ إلا للدفاع عن الدين أو الدفاع عن الأمة، **أما المشروع الإصلاحي الذي يحمل السيف على بقية إخوانه لو عارضوه، فلا يمكن إلا أن يكون مشروع إفساد وتدمير وهلاك.**

وقف النبي ﷺ يوم النحر ليعلن الخطاب الفاصل، ويحدد الدستور الخالد، فقال ﷺ: «**أي شهر هذا**» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال ﷺ: «**أليس ذا الحجة؟**» قلنا: بلى. قال ﷺ: «**أي بلد هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال ﷺ: «**أليس البلدة؟**» قلنا: بلى. قال ﷺ: «**فأي يوم هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال ﷺ: «**أليس يوم النحر؟**» قلنا: بلى. قال ﷺ: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا**

بعدي ضُلّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه»[1].

وإليك هذا الملمح الرائع من ملامح النجاح في سياسة سيدنا عمر ﷺ: **فعن عبدالرحمن بن عوف** ﷺ: «أنه حرس ليلة مع عمر ﷺ بالمدينة، فبينما هم يمشون شبَّ لهم سراجٌ في بيتٍ، فانطلقوا يؤمُّونه (أي يقصدونه) حتى إذا دنَوْا منه، إذا باب مُجَافٌ (أي مغلق) على قومٍ، لهم فيه أصواتٌ مرتفعةٌ ولَغَطٌ، فقال عمر ﷺ ـ وأخذ بيد عبد الرحمن ـ أتدري بيتُ مَنْ هذا؟ قال: لا، قال: هو ربيعةُ بنُ أميةَ بنِ خَلَف، وهم الآن شُرْبٌ (أي يشربون الخمر) فما ترى؟ قال عبد الرحمن: أرى قد أتيْنا ما نَهى اللهُ عنه، نهانا الله فقال:﴿ **وَلَا تَجَسَّسُوا** ﴾ (الحجرات:١٢) فقد تجسسنا! فانصرف عمر عنهم وتركهم»[2] .

وقال زيد بن وهب: أُتِيَ ابنُ مسعودٍ ﷺ فقيل له: هذا فلانٌ تقطُر لحيتُه خمراً . فقال عبدالله ﷺ: «إنَّا قد نُهِينا عن التجسس، ولكن إن يظهرْ لنا منه شيءٌ نأخذه به»[3].

فانصرف عمر ﷺ (بالرغم من علمه) لكي لا يأخذ أحداً بالشبهة، وكذلك فعل قاضي الكوفة عبدالله بن مسعود ﷺ أجمعين .

فلا تدخل بيوت الناس في منتصف الليالي تخرب العامر وتروِّع الآمن وتقول: إنك تصلح؟! **فأين حرمات المسلمين؟** أو تعتدي على أموال المسلمين ودمائهم وتقول: إن هذا إصلاح، لا يمكن هذا أن يصح في الأذهان .

---

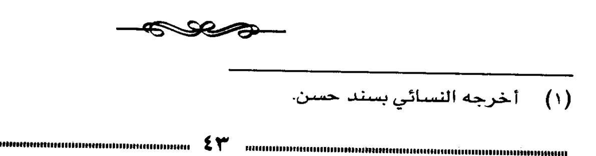
(١) أخرجه الشيخان عن أبي بكرة نفيع بن الحارث ﷺ.
(٢) أخرجه عبدالرزاق وصححه ابن حبان والحاكم.
(٣) أخرجه أبو داود وصححه الحاكم.

إن منهج الإصلاح الناجح منهجٌ سلميٌّ يؤثر اللينَ والكلمةَ الطيبةَ، حتى إذا اعتُدي على صاحبه فإنه يصبر ولا يثير فتنًا بين الناس، ولا يعتدي على أموال الناس ولا على أعراض الناس، لأنه يعلم أن القصاص حاصل بين يدي الله يوم القيامة.

فعَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ. فَيَقُولُ: فَإِنَّهَا لِي، وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا قَتَلَنِي. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ. فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ. فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ»**[1].

المنهج الإصلاحي الإسلامي يعتمد على عدم الإثارة أو إحياء الفتن أو الاعتداء على أعراض الناس أو تجريح الأشخاص أو الهيئات أو قتل الناس أو إصابتهم بأي أذى، يعتمد على الكلمة الطيبة الرفيقة الرقيقة التي فيها قال الله تعالى: **﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾** (البقرة:٨٣)، بل يعتمد الأحسن من الكلام، كما في قول الله تعالى: **﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** (الإسراء:٥٣).

لهذا فإن المصلح الحقيقي يجب أن يقدم مشروعه الإصلاحيَّ بأدبٍ من غير أن يعتدي على أحد، ولا يعتدي على حرمات الناس، بل يتقدم بمشروعه وهو يحافظ على أعراضهم، فلا مجال للعنف في مشروع يوصف بأنه مشروع إصلاحي، ولا يُتصوَّر الاعتداءُ على حرمات الناس ممن يقول إنه يصلح، لا يُتَصَوَّر على الإطلاق الاعتداءُ على أموال الناس ممن يدعي أنه يصلح.



(١) أخرجه النسائي بسند حسن.

تاسعا كيف طبق النبي ﷺ الإصلاح الذي جاء به ؟

تلك كانت أهم مقومات المشروع الإصلاحي النبوي الناجح، فكيف عامل النبي ﷺ الناس، كيف قدم مشروعه، وكيف تعامل مع الذين خالفوه وآذوه؟

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عمر ﷺ أن زيد بن سعنة كان من أحبار اليهود أتى النبي ﷺ يتقاضاه، فجبذ ثوبه عن منكبه الأيمن ثم قال: إنكم يا بني عبدالمطلب أصحاب مَطْل[1] وإني بكم لعارف . قال: فانتهره عمر، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عمر أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج، أن تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي . انطلق يا عمر أَوْفِه حقّه أما إنه قد بقي من أجله ثلاث، فزِدْه ثلاثين صاعًا لتزويرك عليه».

ويأتيه رجل وهو يقسم الغنائم ويقول له: يا رسول الله اعدل[2]، فقال: **«ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل»**، فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه . فقال ﷺ: **«دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»** ...الحديث .

---

(١) أي قوم تماطلون، وهي كلمة مسيئة للنبي ﷺ.

(٢) يعبر عن رأيه ولكن بسوء أدب مع رسول الله ﷺ.

فمع سوء أدب الرجل، وعلم رسول الله بحقيقة أمره فإنه لم يأمر بسجنه ولا بضربه ولا بقتله .

هذا هو مشروع الإصلاح الإسلامي، حتى حين يُعْتَدَى على صاحبه بالقول أو بالسوء، فإنه يصبر، حتى وهو قائد الأمة وأمير الناس وصاحب الكلمة النافذة والأمر المطاع.

وهذا هو عمر بن الخطاب ﷺ، ـ وقد تعلم من خير الناس كلهم ـ دخل عليه أحد الأعراب الجفاة ويسيء الأدب معه، فلم يدفعه هذا الأسلوب الفظ إلى الإساءة، وعفا عن حقه.

أخرج البخاري عن ابن عباس ﷺ قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس ـ وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا ـ فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه . قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل . فغضب عمر حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾ (الأعراف:١٩٩) وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله .

وكان رسول الله ﷺ يعفو عن كل شيء إلا شيئًا لله تبارك وتعالى.

هذا هو الخلق الذي ينبغي أن يكون عليه من يقول إنني أحمل مشروعا، والذي يريد أن يقدم إصلاحا، لابد أن يكون مشروعه بهذه المقومات وبهذه الخصائص.

ختـــــاما

أيها الأحبة الكرام ..

هذه مقومات الإصلاح الناجح، وهذا هو مشروع الإصلاح الإسلامي الذي جاء به رسول الله ﷺ،والذي كما قلت، يمكننا أن نختصر رسالته ﷺ في كلمتين: أنها **رسالة الإصلاح**.

بل رسالات الأنبياء إنما هي رسالات الإصلاح، وكل محب لرسول الله ﷺ، وكل تابع لرسول الله ﷺ على بصيرة، عليه أن يحمل هذا المشروع ويبشر به الأمة، ويدعو الناس إليه.

وما لم نحمل قضية الإصلاح كلُّنا، حكامًا ومحكومين، أفرادًا وجماعات، كبارًا وصغارًا، رجالاً ونساء، فإن الهلاك قادم لا محالة.

قال الله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾** (هود:١١٧)، وقال **﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾** (الأعراف:١٧٠) .

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المصلحين،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



الفهرس

دار الطباعة والنشر الإسلامية

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية/العاشر من رمضان/المنطقة الصناعية ب٢ تليفاكس : ٣٦٢٣١٣ - ٣٦٣٣١٤

Printed in Egypt by ISLAMIC PRINTING & PUBLISHING Co. Tel:. 015 / 363314 - 362313

مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣